222529 ـ بعض جوانب العشرة الزوجية الحميدة التي يدل عليها حديث أم زرع

السؤال

قرأت حديثاً في صحيح البخاري ، في الكتاب السابع والستين ، حديث رقم 123 . وهو حديث طويل عن 11 امرأة تتحدث كل واحدة منهن عن زوجها ، وعندي بعض الأسئلة حول هذا الحديث : ـ ما الصفات التي كان يقصدها النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال " أنا لك كأبي زرع لأم زرع " ؟ ـ لماذا طلّق أبو زرع أمَ زرع ؟ ـ ما الخصال الجيدة للزوج التي يشير إليها الحديث ؟ ـ هل يُفهم من الحديث أن أبا زرع كان زوجاً جيداً ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

روى البخاري (5189) ، ومسلم (2448) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً ، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا ، قَالَتِ الأُولَى : زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ : لاَ سَهْلٍ فَيُرْتَقَى وَلاَ سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ ... الحديث ، وفيه : قَالَتِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ ، أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ ، وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي ، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ، عُكُومُهَا رَدَاحٌ ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ، مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ، طَوْعُ أَبِيهَا ، وَطَوْعُ أُمِّهَا ، وَمِلْءُ كِسَائِهَا ، وَغَيْظُ جَارَتِهَا ، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ، لاَ تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا ، وَلاَ تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، وَلاَ تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا ، قَالَتْ : خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالفَهْدَيْنِ ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا ، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وَأَخَذَ خَطِّيًّا ، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا ، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا ، وَقَالَ : كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ ، قَالَتْ : فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ ، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ . قَالَتْ عَائِشَةُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ) .

شرح الحديث :

(أُنَاس مِنْ حُلِيّ أُذُنَيّ) أي أتاني بالحلي في أذني فهو يتدلى منها .

(وَمَلَأَ مِنْ شَحْم عَضُدِي) مَعْنَاهُ أَسْمَنَنِي .

(وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي) مَعْنَاهُ وَعَظَّمَنِي فَعَظُمْت عِنْد نَفْسِي . يُقَالُ : فُلَانٌ يَتَبَجَّحُ بِكَذَا أَيْ يَتَعَظَّمُ وَيَفْتَخِرُ .

(وَجَدَنِي فِي أَهْل غُنَيْمَة بِشِقّ , فَجَعَلَنِي فِي أَهْل صَهِيل وَأَطِيط وَدَائِس وَمُنَقٍّ) أَرَادَتْ أَنَّ أَهْلهَا كَانُوا أَصْحَاب غَنَم لَا أَصْحَاب

خَيْل وَإِبِل , وَالْعَرَب لَا يعظمون أَصْحَاب الْغَنَم , وَإِنَّمَا يعظمون أَهْل الْخَيْل وَالْإِبِل .

وَأَمَّا قَوْلهَا : (بِشِقّ) يحتمل أنه اسم مكان ، ويحتمل أن مرادها أَيْ بِشَظَفٍ مِنْ الْعَيْش وَجَهْدٍ . وَقَوْلهَا : (وَدَائِس) هُوَ الَّذِي يَدُوسُ الزَّرْع فِي بَيْدَرِهِ . يُقَالُ : دَاس الطَّعَام دَرَسَهُ .

قَوْلهَا : (وَمُنَقٍّ) الْمُرَاد بِهِ الَّذِي يُنَقِّي الطَّعَام أَيْ يُخْرِجُهُ مِنْ قُشُوره ، وَالْمَقْصُود أَنَّهُ صَاحِب زَرْع , وَيَدُوسُهُ وَيُنَقِّيهِ .

قَوْلهَا (فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّح) مَعْنَاهُ لَا يُقَبِّح قَوْلِي فَيَرُدُّ , بَلْ يَقْبَلُ مِنِّي .

وَمَعْنَى (أَتَصَبَّحُ) أَنَام الصُّبْحَة , وَهِيَ بَعْد الصَّبَاح , أَيْ أَنَّهَا مَكْفِيَّة بِمَنْ يَخْدُمُهَا فَتَنَام .

وَقَوْلهَا : (فَأَتَقَنَّح) مَعْنَاهُ أُرْوَى حَتَّى أَدَعَ الشَّرَاب مِنْ الشِّدَّة الرِّي .

قَوْلهَا : (عُكُومُهَا رَدَاح) الْعُكُوم هي الْأَوْعِيَة الَّتِي فِيهَا الطَّعَام وَالْأَمْتِعَة , وَرَدَاح أَيْ عِظَام كَبِيرَة .

قَوْلهَا : (وَبَيْتهَا فَسَاح) أَيْ وَاسِع .

قَوْلهَا : (مَضْجَعه كَمَسَلّ شَطْبَة) مُرَادهَا أَنَّهُ خَفِيف اللَّحْم ، وَهُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ الرَّجُل .

قَوْلهَا : (وَتُشْبِعُهُ ذِرَاع الْجَفْرَة) الْجَفْرَة وَهِيَ الْأُنْثَى مِنْ أَوْلَاد الْمَعْزِ , وَهِيَ مَا بَلَغَتْ أَرْبَعَة أَشْهُر وَفُصِلَتْ عَنْ أُمِّهَا . وَالْمُرَاد أَنَّهُ قَلِيل الْأَكْل , وَالْعَرَب تَمْدَحُ بِهِ .

قَوْلهَا : (طَوْع أَبِيهَا وَطَوْع أُمِّهَا) أَيْ مُطِيعَة لَهُمَا مُنْقَادَة لِأَمْرِهِمَا .

قَوْلهَا : (وَمِلْء كِسَائِهَا) أَيْ مُمْتَلِئَة الْجِسْم سَمِينَة .

قَوْلهَا : (وَغَيْظ جَارَتهَا) قَالُوا : الْمُرَاد بِجَارَتِهَا ضَرَّتهَا , يَغِيظهَا مَا تَرَى مِنْ حَسَنهَا وَجَمَالهَا وَعِفَّتهَا وَأَدَبهَا .

قَوْلهَا : (لَا تَبُثُّ حَدِيثنَا تَبْثِيثًا) أَيْ لَا تُشِيعُهُ وَتُظْهِرُهُ , بَلْ تَكْتُمُ سِرَّنَا وَحَدِيثنَا كُلّه .

قَوْلهَا : (وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتنَا تَنْقِيثًا) الْمِيرَة الطَّعَام الْمَجْلُوب , وَمَعْنَاهُ لَا تُفْسِدُهُ , وَلَا تُفَرِّقُهُ , وَلَا تَذْهَب بِهِ وَمَعْنَاهُ وَصْفُهَا بِالْأَمَانَةِ .

قَوْلهَا : (وَلَا تَمْلَأُ بَيْتنَا تَعْشِيشًا) أَيْ لَا تَتْرُكُ الْكُنَاسَة وَالْقُمَامَة فِيهِ مُفَرَّقَة كَعُشِّ الطَّائِر , بَلْ هِيَ مُصْلِحَة لِلْبَيْتِ , مُعْتَنِيَة بِتَنْظِيفِهِ .

قَوْلهَا : (وَالْأَوْطَاب تُمْخَض) هُوَ جَمْع وَطْب وَهِيَ سَقِيَّة اللَّبَن الَّتِي يُمْخَض فِيهَا .

قَوْلهَا : (يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْت خَصْرهَا بِرُمَّانَتَيْنِ) الْمُرَاد بِالرُّمَّانَتَيْنِ هُنَا ثَدْيَاهَا .

قَوْلهَا : (فَنَكَحْت بَعْده رَجُلًا سِرِّيًّا رَكِبَ شَرِيًّا) (سِرِّيًّا) مَعْنَاهُ سَيِّدًا شَرِيفًا , وَقِيلَ : سَخِيًّا , (شَرِيًّا) هُوَ الْفَرَس الْفَائِق الْخِيَار .

قَوْلهَا : (وَأَخَذَ خَطِّيًّا) هو الرمح .

قَوْلهَا : (وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا) أَيْ أَتَى بِهَا إِلَى مَوْضِع مَبِيتهَا . وَالنَّعَم الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم .

وَالثَّرِيّ الْكَثِير مِنْ الْمَال وَغَيْره .

قَوْلهَا : (وَأَعْطَانِي مِنْ كُلّ رَائِحَة زَوْجًا) فَقَوْلهَا (مِنْ كُلّ رَائِحَة) أَيْ مِمَّا يَرُوح مِنْ الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم وَالْعَبِيد . وَقَوْلهَا (زَوْجًا) أَيْ اِثْنَيْنِ , وَيَحْتَمِل أَنَّهَا أَرَادَتْ صِنْفًا , وَالزَّوْج يَقَع عَلَى الصِّنْف .

قَوْله : (مِيرِي أَهْلك) أَيْ أَعْطِيهِمْ وَافْضُلِي عَلَيْهِمْ وَصِلِيهِمْ .

قال الحافظ رحمه الله :

" زَادَ فِي رِوَايَةِ الْهَيْثَمِ بْنِ عَدَيٍّ : (فِي الْأُلْفَةِ وَالْوَفَاءِ لَا فِي الْفُرْقَةِ وَالْجَلَاءِ) . وَزَادَ الزُّبَيْرُ ـ يعني ابن بكار ـ فِي آخِرِهِ : (إِلَّا أَنَّهُ طَلَّقَهَا وَإِنِّي لَا أُطَلِّقُكِ) . وَزَادَ النَّسَائِيُّ فِي رِوَايَةٍ لَهُ وَالطَّبَرَانِيّ : قَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي زَرْعٍ . وَكَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ تَطْيِيبًا لَهَا وَطُمَأْنِينَةً لِقَلْبِهَا وَدَفْعًا لِإِيهَامِ عُمُومِ التَّشْبِيهِ بِجُمْلَةِ أَحْوَالِ أَبِي زَرْعٍ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَذُمُّهُ النِّسَاءُ سِوَى ذَلِكَ ، وَأَجَابَتْ هِيَ عَنْ ذَلِكَ جَوَابَ مِثْلِهَا فِي فَضْلِهَا وَعِلْمِهَا " انتهى من " فتح الباري " (9/275) .

وقال أيضا :

" التَّشْبِيهَ لَا يَسْتَلْزِمُ مُسَاوَاةَ الْمُشَبَّهِ بِالْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ) وَالْمُرَادُ مَا بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ فِي رِوَايَةِ الْهَيْثَمِ فِي الْأُلْفَةِ إِلَى آخِرِهِ لَا فِي جَمِيعِ مَا وُصِفَ بِهِ أَبُو زرع من الثروة الزَّائِدَةِ وَالِابْنِ وَالْخَادِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمَا لَمْ يذكر من أُمُور الدّين كلهَا " انتهى من " فتح الباري " (9/277) .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ رحمه الله :

" قَوْله : (كنت لَك) مَعْنَاهُ أَنا لَك ، وَهَذَا نَحْو قَوْله عز وَجل : (كُنْتُم خير أمة) أَي أَنْتُم خير أمة " انتهى من " عمدة القاري " (20/178) .

فمقصوده صلى الله عليه وسلم بقوله : (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ) يعني في حسن العشرة ، وكرم الصحبة ، ودوام المحبة والألفة ، وأكد ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : (إِلَّا أَنَّهُ طَلَّقَهَا وَإِنِّي لَا أُطَلِّقُكِ) .

ثانيا :

سبب طلاق أبي زرع أم زرع ، أن هذه المرأة التي لقيها فأعجبته وتزوجها على أم زرع ، ألحت عليه في طلاق أم زرع ـ وكان يهواها ويحبها أكثر من محبته أم زرع ـ فطلقها .

قال الحافظ :

" قَوْلُهُ : (فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا) فِي رِوَايَةِ الْحَارِثِ : (فَأَعْجَبَتْهُ فَطَلَّقَنِي) ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ : (فَخَطَبَهَا أَبُو زَرْعٍ ، فَتَزَوَّجَهَا ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ أُمَّ زَرْعٍ) ، فَأَفَادَ السَّبَبَ فِي رَغْبَةِ أَبِي زَرْعٍ فِيهَا ثُمَّ فِي تَطْلِيقِهِ أُمَّ زَرْعٍ " انتهى من " فتح الباري " (9/274) .

ثالثا :

تضمن هذا الحديث بعض الخصال الحسنة التي ينبغي أن يكون عليها الزوج تجاه زوجته ، فمن ذلك :

ـ حسن العشرة بالتأنيس والمحادثة .

ـ المباسطة بالمداعبة والمزاح في غير تعد .

ـ إتحافها بالهدايا والألطاف .

ـ إكرامها بحسن الإنفاق عليها وعدم البخل حتى إنها ذكرت أن زوجها الثاني كان كريما معها ومع ذلك قالت : (لَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ ، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ) .

ـ عدم استهجانها أو الاستخفاف بعقلها إذا تكلمت أو فعلت شيئا .

ـ إمساكها بمعروف وعدم تطليقها حيث كانت عفيفة دينة ، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَّقَهَا وَإِنِّي لَا أُطَلِّقُكِ) .

ـ رعاية أولادها وحسن تربيتهم وتأديبهم ، فإن ذلك من تمام حسن عشرتها .

ـ حسن اختيار الزوج للجارية التي تخدم في البيت ، فتصلح ولا تفسد ، وتروج للخير وتسكت عن الشر ، وذلك أيضا من تمام حسن عشرته لزوجته .

وقد جاء أن أبا زرع ندم بعد ذلك على طلاقها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

" وَقَعَ فِي بعض طرق الحديث إِشَارَة إِلَى أَنَّ أَبَا زَرْعٍ نَدِمَ عَلَى طَلَاقِهَا ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا " انتهى من " فتح الباري " (9/277) .

والله أعلم .